

— واعظ الرشيد*

قال الفضل بن الربيع :

حجّ هارون الرشيد أمير المؤمنين ، فأتاني فخرجتُ مسرعاً ، قلت :
يا أمير المؤمنين ؛ لو أرسلتَ إليّ لأتيتك ! فقال : ويحك ! قد حكّ في نَفْسِي شَيْءٌ ،
فانظر لي رجلاً ! قلت : ها هنا سفيان بن عيينة^(١) ، فقال : امضِ بنا إليه ،
فأتيناهُ فقرعتُ الباب ، فقال : مَنْ ذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ! فخرج مسرعاً ،
فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إليّ لأتيتك ، فقال له : خذْ لما جئناك له
رَحِمَك اللهُ . فحادثته ساعة ، ثم قال له : عليك دينٌ ؟ فقال : نعم ، فقال : يا عباسيُ ،
اقضِ دينه .

فلما خرجنا قال لي : ما أغنى صاحبك عنى شيئاً . انظر لي رجلاً أسأله ، قلت :
ها هنا عبد الرزاق^(٢) بن همام ! قال : امضِ بنا إليه ، فأتيناهُ فقرعتُ الباب فقال :
مَنْ هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛
لو أرسلتَ إليّ لأتيتك ، فقال : خذْ لما جئناك له ؛ فحادثته ساعة ، ثم قال له : عليك
دينٌ ؟ قال : نعم ! قال : يا عباسيُ ، اقضِ دينه .

فلما خرجنا قال : ما أغنى صاحبك عنى شيئاً ، انظر لي رجلاً أسأله ، قلت :
ها هنا الفضيل بن عياض^(٣) ؛ قال : امضِ بنا إليه ، فأتيناهُ ؛ فإذا هو قائم يصلي ،

(*) المختار للمطالعة العربية طبع أوروبا .

(١) سفيان بن عيينة : حافظ ثقة ، واسع العلم كبير القدر ، قال الشافعي عنه : لولا مالك
وسفيان لذهب علم الحجاز ، توفى سنة ١٩٨ هـ .

(٢) عبد الرزاق بن همام : من حفاظ الحديث الثقات ، توفى سنة ٣١١ هـ .

(٣) الفضيل بن عياض : من أكابر العباد الصالحاء ، كان ثقة في الحديث وتوفى سنة ١٨٧ هـ .

ويتلو آية من القرآن يردّها ، قال : افرع الباب قفرتُ الباب ، فقال : من هذا؟
قلتُ : أجب أمير المؤمنين ، فقال : مالي ولأمير المؤمنين ! قلتُ : سبحان الله !
أما عليك طاعته ؟ فنزل وفتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة ، فأطفا السراج ، ثم التجأ
إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فدخلنا ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقتُ كفتُ
هارون قبلي إليه .

قال : يا لها من كفتُ ، ما أليتها ! إن نجتُ غداً من عذاب الله عز وجل .
قلتُ في نفسي : ليكلمته الليلة بكلامٍ من قلبٍ نقي ، فقال له : خذُ لما جئتُك
له - رحمك الله ! فقال له : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله
ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : إني قد ابتليتُ بهذا البلاء .
فأشيروا عليّ - فعَدَّ الخلافة بلاء . وعددتها أنت وأصحابك نعمة .

قال له سالم بن عبد الله : إن أردتَ النجاة من عذاب الله فصم الدنيا .
وليكن إبطارك منها الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردتَ النجاة من عذاب الله
فليكن كبير المؤمنين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ؛
فوقر أباك ، وأكرم أخك ، وتحنن على ولدك .

وقال له رجاء بن حيوة : إن أردتَ النجاة غداً من عذاب الله عز وجل
فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت .
وإني أقول لك : إني أخافُ عليك أشدَّ الخوف يوم تنزل الأقدام ، فهل معك -
رحمك الله - مثل هؤلاء ، أو من يشيرُ عليك بمنزل هذا ؟ فبكي هارون بكاءً
شديداً ، حتى غشي عليه . قلتُ له : أرفقُ بأمير المؤمنين رحمك الله .

فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكى إليه ، فكتب إليه عمر : يا أخى ؛ اذكرك طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد ، وإياك أن يُنصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك ، وانقطاع الرجاء منك .

قال : فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز ؛ فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك ؛ لا أعوذ إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل . فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال له : زدنى - رحمك الله !

فقال له : يا أمير المؤمنين ؛ إن العباس عمّ النبي جاء إليه ، فقال له : يا رسول الله ؛ أمرنى على إمارَةٍ . فقال له النبي : إن الإمارة حسرةٌ وندامة يوم القيامة ؛ فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل . فبكى هارون بكاء شديداً ، ثم قال : زدنى - رحمك الله !

فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذى يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ؛ فإن أردت أن تبقى هذا الوجه من النار ، فأياك أن تُصبح وتُسمى وفى قلبك غشٌّ على أحدٍ من رعيتك ، فإن النبي قال : من أصبح لم يَغشأ لم يَرِحْ⁽¹⁾ رائحة الجنة . فبكى هارون ، وقال له : عليك دين ؟ قال : دينٌ لربى لم يحاسبني عليه ؟ فالويلُ لى إن سألنى ؛ والويلُ لى إن لم ألهم حُجَّتى ، قال : إنما أعنى من دين العباد ! قال : إن ربى عز وجل لم يأمرنى بهذا ، إنما أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره ، فقال : وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون ، ما أريدُ منهم من رزقٍ وما أريدُ أن يُطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوَّة المتين .

لم يريح رائحة الجنة : أي لم يشم ريحها

قال له : هذه ألف دينار ، خذها فأنفقها على عيالك ، وتقوِّ بها على عبادة ربِّك . فقال : سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ! سلمك الله ووفَّقك ، ثم صمت فلم يكلمنا .

فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب ، قال هارون : يا عباسي ؛ إذا دللتني على رجل فدلتني على مثل هذا ! هذا سيد السلفين .

فدخلت عليه امرأة من نساؤه ، فقالت : يا هذا ؛ قد ترى ما نحن فيه من ضيق المال ، فلو قبلت هذا المال فمفرِّجنا به ، فقال لها : مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعيرٌ يأكلون من كسبه ، فلما كبرَ نحره فأكلوا لحمه .

فلما سمع هارون هذا الكلام قال : ندخل فمسي أن يقبل المال ، فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب العرقة ، فجاء هارون فجلس إلى جنبه ، فجعل يُسكِّمه فلا يجيبه .

قال الفضل : فيينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء ؛ فقالت : يا هذا ، قد آذيت الشيخ منذ الليلة ؛ فانصرف رحلك الله ! فانصرفا .